



يَوْمِي أَنَا فِي الْإِرْيَافِ

لِلأَسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

١٢ أكتوبر ...

وأوصيته أن يعضى بالمساعد إلى منزله ، وحيث الأمور وزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة للدولة فوجدت القاضي في الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضي حتى وجعت ؛ ففي المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم في القاهرة ولا يأتي إلا يوم الجلسة في أول قطار ، ويسرع في نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذي يعود إلى القاهرة . ومهما زادت

لساعدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالي يبابها مكدمين كالذباب . وكان مساعدي قد خر إلى جوارى صريع الكرى ، ولم يهمني أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يمتد بعد وصل الليل بالهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلأترفقن به في أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف ،

وتصوّبت من أجزاء الفضاء صيحات وصيحات ؛ ونصعدت من القبور تحت أطباق الثرى أنات وأنات نفخى قلب لينورا خفقة انتقلت بها من الحياة إلى الموت

فتحالت الأرواح تحت ضوء القمر حولها ، ورقصوا وهم ينشدون : « الصبر ! الصبر ! مهما هاض الألم قلبك وصدع كبذك ، فلا تعبني في حق رب السموات أبداً . هأنث ذى قد أسلمت جسمك عفا الله عن نفسك »
عبد الرحمن صدقي

صاحبه بين قبور متكاثرة تنهدى تحت ضوء القمر في كل ناحية

هنا ، بالمول ! وقمت في التو واللحظة آيةً مربعة : تساقطت عباءنا الفارس إرباً إرباً كالعهن المحروق . ولم تبق من هامته إلا ججمة معروقة ؛ وحال جسمه هيكلًا عظيمًا محتقياً ساعةً رمائية وممتهلاً منجلاً

وشب الجواد الأسحج حنقاً ونفت شرراً . وعلى حين بقة ساخ وغاب في أعماق الأرض ؛

والتهموت بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالما تبرم هذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدري العلة . فكننت أقول فى نفسى : « إرفع أسماكك تر ما يسرك » ، وبدأ المحضر ينادى أسماء التهمين من ورقة فى يده . وقزمان افندى المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو إذا نادى تعاطف فى حركاته وإشاراته وصوته ، والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الأمر الناهى ، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولكن فى مد وغن ونغمة كمنغمة الباعة المتجولين . وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : « أنت يا شعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات ، كله أكل عيش »

ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق ؛ فرفع القاضى رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه ، وقال للمائل بين يديه :

- أنت يا رجل خالفت لأتحة السلاخانات بأن

أجريت ذبح خروف خارج السلاخانة

- يا سيدى القاضى ، الخروف ... ذبحناه ، ولا مؤاخذه ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة ظهور الولد

- غرامة عشرين « قرش » . غيره ...

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى ... مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مغى الحكم فيه ... وقد تركت القاضى يحكم وجعات أرواح عن نفسى

القضايا وبلغ عددها ثلث هذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو رجل ذو وسواس ، وهو بمقد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطل ، فى نظر القضايا خشية المجلة والفاط ؛ ولملحه أيضاً يريد شغل وقته وتسلية فحرجه فى هذا الريف ؛ وايس أمامه قطار يحرق على ميماده ؛ فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سميت فيها فلا يتفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيبنى جلسته من العذاب ، فهى الحبس بعينه . وكأنما قضى على أن أربط إلى منصتى لأبدي حراكا طول النهار ، وقد وضع حول عنقى وتحت أبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام اللهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها علينا فنندفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟

وجمت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت فى جلسة لا ترحم بمدايلة كلها عمل . واست أدردى ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة ذلك القاضى السريع

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعات أن نظرت فى « الرول » فإذا أمامنا سبعةون مخالفة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفى أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : إن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون

القانون : فأشاح القاضي بوجهه عني وأطرق قليلاً
وهز رأسه ثم قال في سرعة من يرمح عن كاهله حملاً :
— غرامة عشرين : . غيره

فنادى المحضرامم امرأة ، فحضرت موسم ريفية
قد زججت حاجبها بعود نقاب ، وطالت وجنتيها
بذلك الأحمر الفاقع الذي تطلي به صناديق الدخان ،
« السمسون » وصورت بالوشم صورة قلب يخترقه
سهم على ذراعها العارية ، ووضعت في معصمها
أساور و « غوايش » من المعدن ومن الزجاج الملون .
فنظر إليها القاضي وقال :

— أنت متهمة بأنك وقفت أمام باب منزلك
فوضعت يدها في خصرها وصاحت :
— هو ياروحى من وقف قدام باب بيته
كفر ؟ !

— وقوفك فيه اغراء للجمهور
— حسرة وندامة علينا . وحياة دقن القاضي
عمرنا ما وقمت عينتنا على جمهور ، ولا مر من قدام
منزلنا « ادلدى » جمهور
— غرامة عشرين ... غيره

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالي فظهر رجل
كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته
« المزهرة » ومن جلبابه السكشير وعباءته الجوخ
الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع في صفوته ،
أنه على جانب من اليسار واستواء الحال . فما ان
مثل حتى ابتدره القاضي :

— انت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل
كليك في الميعاد القانوني
فتنجنح الرجل وهز رأسه وتتم كأنه يستغفر
ويسترجع :

بمشاهدة الأهالي الحاضرين في الجلسة ... وقدم لأوا
المقاعد و « الدكك » وقاض فيضهم على الأرض
والمرات ... جلسوا القرفصاء كأنهم الماشية رفعون
عيونهم الخاشعة إلى القاضي وهو ينطق الحكم كأنه
راع في يده عصا . وضاق ذرع القاضي بذلك اللون
المتكرر من المخالفات فصاح :

— فهموني الحكاية : الجلسة كلها خرقان
خارج السليخة ! . وحق في الناس بعينين كالحصتين
خاف المنظار الراقص على طرف أنفه ، ولم يفتن
أحد ولا هو نفسه لما في هذه العبارة من تعريض .
ومضى المحضر بنادى وقد تغير قليلاً نوع المخالفة
ودخلنا في نوع جديد ، فقد قال القاضي للمخالف
الذي حضر :

— أنت يارجل متهم بأنك غسلت ملابسك
في التربة

— يا سمادة القاضي ربنا يملئ مراتبك ! تحكم
على بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟
— لأنك غسلتها في التربة
— وأغسلها « فين » ؟

فتردد القاضي وتفكر ولم يستطع جواباً . ذلك
أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون في تلك
القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافي من
الأنابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون
كالسائمة ، ومع ذلك بطالب إليهم أن يخضعوا إلى
قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ،
والتفت القاضي إلى وقال :

— النيابة ..
— النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يفسد
هذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنيه هو تطبيق

أنا حافت ووقع مني عين أن البنية ما يقل مهرها
عن العشرين بنتو ...

فرقع القاضي رأسه وثبت منظاره ونظار اليها صامحاً:
— تمالي كلميني هنا ، أنا القاضي ، المضة
حصلت منك ؟ قولي نعم أو لا ، كلمة واحدة
— عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن
كله إلا المض

فصاح القاضي في المحضر : « هات الشاهد »
فحضر المحي عليه وقد لف بنصره في رباط صهي ،
فسأله القاضي عن اسمه وصناعته وحافه اليمين أن
لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :
— أنا يا حضرة القاضي لالي في الطور ولا
في الطحين . والقصة وما فيها إني كنت واسطة خير
وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية .

فحلق فيهِ القاضي وهو يكظم غيظه ، ثم انهره
وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل
الأوراق قائلاً : إن لهذه المهمة ابنة تدعى « ست أبوها »
خطبها فلاح يدعى « السيد حريشة » وعرض
مهرها قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير
العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء
ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبي صغير يطلق
عليه اسم « الزنجير » فذهب من تلقاء نفسه إلى
أهل العروس وأبلغهم كذبا أن الخاطب قد قبل
الشرط ؛ ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت
قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر
عبث هذا الصبي ومكره بالطرفين أن حدد يوم
لقراءة الفاتحة في بيت العروس ، وانتدب الخاطب
الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج ليكونا شاهديه .
وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة ، وما كاد

— عشنا وشفنا الكلاب تتسجل « زى

الأطيان » وتبقى لها حيثة !

— غرامة عشرين ... غيره

ومضت الأحكام في جميع المخالفات على هذا
النحو ولم أر واحداً من المخالفين قد بدا عليه أن
يؤمن بحقيقة ما ارتكب . إنما هو غرم وقع عليهم
من السماء كما تقع المصائب ، وأتاوه يؤدونها ، لأن
القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ؛ ولطالما
سألت نفسي عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن
نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً
أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر :
« قضايا الجنج » ونظر في ورقة « الرول » ونادى
« أم السعد بنت إبراهيم الجرف . فظهرت فلاحه
عجوز تدب في القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين
يدى قزمان أفندي المحضر . فوجهها إلى القاضي
فوقفت تنظر إليه بعصر ضعيف ثم لم تلبث أن
تحولت عنه وعادت إلى الوقوف بين يدي المحضر
المهرم . وسألها القاضي ووجهه في الورق :

— اسمك ؟

— بحسبتيك أم السعد

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فتمزها
قزمان أفندي ووجهها إلى المنصة مرة أخرى وسألها
القاضي :

— صنعتك ؟

— صنعتي حرمة

— انت متهمة انك عضضت أصبع الشيخ

حسن عمارة

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر

— وحياء هيبتيك وشيبتك إني ماعبت أبداً .

وغرقت في مقعدى وقد عبث النوم بأجفائى ،
ومضى وقت است أدري مقداره ، وإذا صوت
القاضى بصيح بى : « النياية ! طلبات النياية . »
ففتحت عينين حراوين لا يبدو فيهما غير طلب
النوم ، فأخبرنى القاضى أنه اطاع الآن على تقرير
الطبيب الشرعى فإذا الاصابة قد تخاف عنها عاهة
مستدعة هى فقد « السلامة » الوسطى للبصر ؛
فاعتدت في مقعدى وطلبت في الحال الحكم بعدم
الاختصاص . فالتفت القاضى الى المعجوز قائلا :

— الواقعة أصبحت جنائية من اختصاص
محكمة الجنايات

فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالمضة
في نظرها هى ما زالت العضة ، ثما الذى حولها من
جنحة الى جنابة ؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن
أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين

ونوديت القضية التالية فإذا هى شجار بالهراوات
وقع بين والد « ست أبوها » وبين أهل الزوج
(السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر
الأمس . وبمث الزوج بعض أهله ومعهم جل لاستلام
العروس من بيت أبيها . فقاباهم الأب محتداً سارخاً
في وجوههم : « جل » ؟ بقى تخرج بنتى على جل !
أبدأ . لا بد من « السكومبيل »

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة
التي ربماها بهم تطور العصر . وأدى الجدل الى
رفع العصي وإسالة بعض قطرات من الدماء لامناص
منها في مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن
أخرج أحد الساعين في الخير ريالاً من جيبه
واستأجر سيارة من تلك السيارات التي تمر بالطرق
الزراعية . وحكم القاضى في هذه القضية ثم صاح :
— « انتهىنا من الفرح » و « الدخلة »

الطعام بهياً ويقدم الى الضيوف حتى ذكر المهر .
وظهرت الأ كذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم
الجدال بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول في
صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة ، يا شمانة الأعادى !
والنبي ما أسلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت
المرأة في وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها
وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛
وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده في
طعام وقام الى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها .
بينما مد زميله الشيخ فرج يده الى الأوزة وجعل
ينهم منها نهشاً دون أن يدخل في النزاع المحتدم .
ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام
وإذا الشيخ حسن يرى يده لا في طبق الأوز
ولكن في فم المعجوز ؛ فصرخ صرخة داوية .
وانقابت الدار شر منقاب ، واختلط الحابل بالنابل ،
وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام
الطعام انتزاعاً وخرج به وهو يحرق الأرم : فهذا
الرفيق لم يقل كلمة وحظي بالأكل ، وهو الذى
تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت
المعجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عايشه في الكلام . وفجأة
أخذت القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع
المتكلم وقال كالمخاطب لنفسه : « يا ترى أنا حلفت
الشاهد اليمين ... » والتفت الى قائلاً : « يا حضرة
وكيل النياية . أنا حلفت الشاهد اليمين ؟؟ » فجعلت
أندكر ... ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح :
« احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » تخاف
الرجل ، فصاح به القاضى : « اذكر أقوالك من
أولها »

فعلت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنى وتشاءبت

على خير ! ... غيره !

فنادى المحضر بصوته المثلث « قضايا المحاميس »
وذكر اسمًا من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل
ونهمض من بين لابسى الخيش رجل فك الحارس
قيدته . ونهمض من بين المحامين أفندى ذو بطن
كأنها القرية الملوثة وقال : « حاضر مع التهم »
« فقلت فى نفسى » تلك قضية لها محام ان يتركنا
قبل أن يفرغ فى رؤوسنا ماشاء بحجة حرية الدفاع .
فلأنهمض عيني منذ الآن فرأيتى أحوج ما يكون
الى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول
للمحبوس :

— أنت منهم بأنتك مرقى «وابور غاز» ...
— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان .
لكن لا مرقى ولا نهمض ...

فالتفت القاضى الى المحضر قائلا : « هات
الشاهد » فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى
منكببيه « دفتة » ، خاف اليمين وقال انه أشعل
«وابور الغاز» ليهيئ الشاى لبعض «الزبائن» الجالسين
داخل الحانوت . فهو بدال ريفى صغير يبيع السكر
والبن والشاى والتبغ ويجمع لديه أحيانا بعض
الناس كأنهم فى شبيه مقهى ولقد وضع الوابور
مشتعلا عند عتبة الباب فى الطريق ودخل المحضر
الابريق وما إن عاد حتى رأى التهم قد حمل الوابور
بناره وجرى به . وجمل الشاهد يسهب ويستشهد
بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضى
مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شىء آخر .
وختاة نظر الى وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت
الشاهد اليمين ؟ » فما تمالكى أن صحت فى ضيق :
« سبحان الله ! ! أنا سمعت الشاهد حلف » فقال
لى القاضى : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى

تفارقنى فهمت : « تحب أنى أحافلك أنه حاف ؟ »
فاطمأن القاضى بعض الاطمئنان وأصغى الى بقية
الشهود فى صمت وانتباه . ولم يطق التهم صبرا
فهمض بفتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضى ! فى الدنيا « حرامى »
يسرق « وابور غاز » بناره ؟ !

فأسكته القاضى بأشارة من يده قائلا :
— ألى أنا ؟ ! أما عمرى ما اشتغلت
« حرامى » . ونظر الى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن
التهم بصييح قائلا : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم
نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا فى طريق
به وابور ... والقضية ملفقة من ألفها الى يائها ... »
وأراد المحامى ان ينطلق فى هذا الكلام وأن يصول
ويجول . ولكن القاضى قاطعه :

— حاكم يا استاذ . التهم نفسه معترف بأنه
صحيح اقى الوابور قدام باب الدكان ! فضرب الأستاذ
وجه المنصة بقبضته وقال :

— هذا سوء دفاع من موكلى
فأجاب القاضى فى هدوء :

— غرض حضرتك أنى أصدق حسن دفاعك
وأ كذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعا !
فاحتج المحامى ورفع عقبرته وقد بدالى أن كل
همه أن يجادل صوته فى الجاسة ، وأن يتصعب عرقه
فيمسحه بمنديلته وينظر الى « زبونه » كأنما يريه
الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى
سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام
منصتى قد صيرنى شخصا لا ينى ولا يفهم ما يدور
حوله فأخفيت وجهى فى ماف من ملفات القضايا
واستسلمت للنعاس

نرفيق الحكم

(ينبع)